مناضلون و عشاق للحياة

د. حسن فتح الباب

تعشق الفتاة التي نذرت نفسها لمقاومة الطغاة حياتها وحياة إخوتها وأخواتها وغيرهم من أبناء الشعوب الذين يجسدون الوطن والعالم الذي خلق ليعيشوا فيه وينعموا بخيراته. فهي تتفق معهم في هذا العشق،ولكنها تختلف عنهم حين يصبح الوطن قضية تستحق في نظرها أن تضحي بروحها في سبيله .

إن المناضلين والمناضلات هم أكثر الناس ايمانا بأن الحياة عزيزة وجديرة بأن يعيشها الإنسان في كل زمان ومكان .ولكنهم أيضا أكثر خلق الله إيثارا للكل على الجزء ،ومن ثم تتخلى عن حبها لذاتها و تقبل على التضحية بها ،إذا كان في هذه التضحية حياة لمن تحب أرضا وانسانا وتاريخا ووطنا للجميع.

فالمناضل والمناضلة لا ينتحران حين يقبلان على القيام بعملية فدائية تنتهي غالبا بالموت؛إنهم يسمون على غريزة الحرص على البقاء، وهي أقوى الغرائز في الكائن الحي.. يستصغرونها وتكبر نزعة الكفاح حتى الموت في النفس البشرية التي أوتيت الشجاعة والإقدام على التضحية. ومن المضحك المبكي -ومن البلية ما يضحك-أن يقتنع قطاع كبير من الرأي العام الغربي بما تروجه الدعاية الصهيونية السوداء ،فتزعم ملكة هولندة أن أمهات أطفال الانتفاضة يدفعنهم إلى الانتحار حين يتركنهم يواجهون دبابات إسرائيل بصدورهم العارية، وبأياديهم الصغيرة المحملة بقطع الحجارة التي كانت بيوتا لعائلات فلسطينية هدمها جنود باراك و شارون ،فأصبحت أثرا بعد عين ،تشريدا لأصحابها وكسرا لإرادة أبنائهم المقاومين لكي تخمد نار الثورة المشتعلة في صدورهم ولا يجدوا مناصا من الاستسلام.

ومن المؤسف أن تبتلع وسائل الإعلام العربية هذا الطعم الخبيث وتسمي العمليات الفدائية عمليات انتحارية ،رغم أن الإسلام والديانة المسيحية يمجدان الحياة ويُنفّران من قتل النفس ،ويريان أن موت المؤمن بقضية وهو يقاتل العدو استشهادا يستحق به الخلود؛ لأن عمله الفدائي إعمال لمبدأ الدفاع عن النفس الذي أقرته الشرائع السماوية والوضعية.وتتمثل النفس في أبناء وطن المناضل الذين اغتصب العدو أرضهم وعاث فيها فسادا بقهر أهلها والاستيلاء على ديارهم وأموالهم.

إن التروع إلى التحرر من القيد غريزة أخرى ؛لأنه لا معنى للحياة تحت ذل الاستعباد، وقديما قال شاعر العربية الأكبر أبو الطيب المتنبي :

عش عزيزا أو مت وأنت عزيز بين طعن القنا وخفق البنود

والمناضل إذ يقدم روحه قربانا على مذبح الحرية والعدل يبلغ أسمى فضائل الإنسان وهو الإيثار والعطاء:

يجود بالنفس إن ضنّ البخيل بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود

ولما كان الفدائي يملك وعيا جمعيا لا وعيا بذاته فقط ، فإنه يهب نفسه للجموع العانية المقهورة كي يخلصها من أغلالها ويهبها الحياة والحرية اللتين حرمت منهما. فهو من أكبر عشاق الحياة وأكثرهم إدراكا لقيمتها.. إنه يستمتع بها حتى آخر قطرة، حتى إذا دعاه داعي الجهاد لبى النداء ، فإذا قضى نحبه ودع الحياة مطمئن الضمير. أما إذا قُيّض له أن يعيش بعد المعركة فإنه يعود إلى الاستمتاع بحياته في ظل تحقيق النصر على العدو ومشاركة أبناء وطنه في مباهج العيش الكريم.

لذلك نراه مضيء الوجه باسم الثغر في علاقاته بمن يحب وبالناس الأسوياء جميعا ،ليس جَهما ولا كئيبا ،فالجهامة والكآبة هما سمتا المتعصبين المنغلقين على ذواتهم ، المقطبي الجباه الكارهين للحياة الناقمين على خلق الله ما لم ينضووا إلى صفوفهم ويخضعوا لباطلهم. فإذا شاب الأسى ملامح المناضل فإنما هو الحزن لآلام المظلومين ،هذا الحزن الذي يفجر الثورة في داخله على الظالمين فينتصر لهم بعملية فدائية يرجع منها منصورا قرير العين أو شهيدا مخلدا.

جيفارا عاشق الحياة والحرية

نظرة إلى صورة أرنستو جيفارا الثائر الإنساني العظيم -كما التقطها عن طريق المصادفة مصور فرنسي وأصبحت هي الأثر النادر الباقي من أسطورته والصورة التي لا تقدر بثمن-تكفي النظرة إليها لكي ندرك مدى عشقه للحياة واستمتاعه بها..طرف سيجارة الهافانا الكوبية المشهورة معلقة على شفتيه ،وطيف ابتسامة وإشراقة على المحيا تنبيء عن نشوة بساعة صفاء وحب للبشر جميعا..لا تجهم ولا تصنع وإنما انسياب روحي يشع على الجسد .. ما أبهى وما أروع . ومن الذي يصدق أن علامات الصحة والعافية والإقبال على الحياة

التي ازدان بها الوجه الصبوح تتفجر من نفس خاض صاحبها غمار إحدى أروع الثورات في العصر الحديث ، ثورة علمت الجيل بعد الجيل في العالم الثالث كيف يحبون الحياة ويعشقون الموت في سبيلها.

يُصَدِّق هذه العلامات كل من وعى قيمة الحرية التي يذود عنها ، هذه القيمة التي عبر عنها شوقي بقوله :

يسكن الوحش للوثوب من الأسر فكيف الخلائق العقلاء !!

وهو نفس المعنى الذي صوره شكسبير بعبارته المأثورة : **steep to conquer**

أي السكون الذي يسبق التحفز للانطلاق والثورة على القيود والأغلال.

ومثل الفراشات التي تنتقل من زهرة إلى أخرى ،والريح التي تنقل اللقاح كي تولد الأزاهير في الربيع ، كان جيفارا ينثر بذور الثورة في بلدان أمريكا اللاتينية مغادرا كوبا بعد أن شارك في ثورتها المنتصرة.وفي أحراش بوليفيا لقي مصرعه بعد أن دوخ الولايات المتحدة التي كانت تعتبر أمريكا اللاتينية فناءها الخلفي ..ووشى به العملاء لمخابراتها C.I.A ولكنه لم يمت في ضمائر أحرار العالم ،بل ظل وما زال رمزا حيا في ضمائر المناضلين الشرفاء.

ناظم حكمت شاعر الإنسانية

وناظم حكمت الشاعر التركي العالمي قضى في السجن نحو عشرين عاما ،وغادره بعد الإفراج عنه تحت ضغط الرأي العام - إلى المنافي واحدا بعد الآخر ، كان نموذجا لعشق الحياة ،ومثلا أعلى في التفاؤل ،والإيمان بمستقبل أفضل مادام الكفاح مستمرا، فهو القائل:

إن أجمل الأطفال من لم يولد بعد وأجمل الأيام ما لم يأت بعد

والقائل:

إذا لم تحترق أنت

إذا لم أحترق أنا

فمن ذا الذي يشعل شمعة في الظلام ؟

لقد زار ناظم مصر مدعوا للمشاركة في مؤتمر القاهرة للشعوب الآسيوية والإفريقية الذي عقد في ٢٦ ديسمبر ١٩٥٧م ،وكان امتدادا لمؤتمر باندنج في أبريل ١٩٥٥م ،وأهم

قراراته التضامن في مقاومة الاستعمار ونزع السلاح وتجريم إنتاج الأسلحة الدرية واستعمالها. كان المؤتمر دعوة للكفاح من أجل الحرية والسلام العالمي ،وهو المبدأ الذي عاش وضحى في سبيله ناظم حكمت .

كان مريضا بالقلب من جراء سجنه الطويل ،ولكنه ظل عاشقا للحياة والحب كما تدلنا القصائد التي كتبها في زنزانته إلى حبيبته ، ومثلما تدلنا أحاديثه حينما حل بالقاهرة.

وكم حزنت حين حُرمت من رؤيته ومصاحبته في ذلك الحين ، إذ كنت منفيا في أقصى الدلتا عقابا على جريمة دفاعي عن الفقراء في بلادي وفي سائر بقاع العالم .

ولكن صديقي الدكتور محمد البخاري الشاعر الضليع في اللغة الفرنسية كان مرافقا له ،وقد ترجم للشاعر العظيم ديوانه (أشعار في المنفى)

وحدثني أنه دعاه إلى زيارة الآثار ،فقال : دعنا من مشاهدة الآثار والمتاحف ..أريد أن أرى أطفال مصر وأن أحتضنهم ..فالطفولة هي ربيع الحياة التي يعشقها ناظم ويضحي من أجلها . وهي التي ألهمته قصيدة (بورسعيد) التي رثى بها صبيا من أبناء هذه المدينة الباسلة - لقي مصرعه تحت قنابل العدوان الثلاثي الغادر على مصر سنة ١٩٥٦ ، وقد تصوره الشاعر ماسح أحذية :

كان (منصور) نحيلا أسمرا

كنواة البلح

ساحر الصوت يغني دائما دون انقطاع :

" ليل يا عين"

أشعلوا النيران تذرو بورسعيد

قتلوا (منصور) فيها

ورأيت اليوم وجهه

في صحيفة

وسط الموتى صغيرا مستدق الصغر

كنواة البلح

فالمناضلون والمناضلات يقبلون بصدورهم العارية على الموت رغم أنهم ، بل لأنهم من أكبر عشاق الحياة ، ولكن أية حياة ؟

إنها تلك التي يتساوى فيها الجميع ولا تستأثر بخيراتها ومباهجها فئة أو طبقة دون أخرى. إنها الحياة التي يكون فيها العمل معيارا لتقييم الفرد أو الجماعة ، وليس السلطة أو المال أو الجاه .

تلقاه بين غمار الحياة يعيش حياة عادية يحتضن -مثل ناظم حكمت الأطفال ..وتضيء وجهه ابتسامة مثلهم ، ولكنه إذا دعاه الوطن لبى النداء وتحول إلى بطل ، قد يسجن أو يعدم ، ولكنه يعلم أنه سيصبح أغنية تترنم بها الأجيال ، وتصبح تضحيته منارا للحرية والعدل والكرامة للأجيال ، وسيحقق مقولة ناظم حكمت:

(إن أجمل الأيام ما لم يأت بعد).